الفصل الخامس

رحيل بلا عودة

ظلت "سلمى" تصرخ، حتى اندفع الجميع إلى مكتب "جهاد"؛ ليعرفوا مصدر هذا الصوت العالي.. وما سبب كل هذا الهرج والمرج.. كان من بين المتدافعين " حسام " الذي لم يكد يلمح جهاد ملقاة على الأرض بهذا الشكل، حتى ثار الدم في عروقه، وضم قبضته ووجهها إلى فم طارق الذي سالت الدماء من شفتيه هو الآخر.. وقبل أن يندلع الشجار بينهما صرخت سلمى:

-أنقذوا جهاد أولاً.. ليس هذا وقت شجارٍ أو عراكٍ.

وبعد دقائق قليلةٍ، كانت جهاد ترقد في المشفى المجاور، وإلى جانبها سلمى.. فتحت جهاد عينيها ببطءٍ، وهي تتمتمُ:

-أين أنا ؟

أجابت سلمى رغم دموعها الصامتة:

-أنتِ هنا يا حبيبتي بالمشفى.

-ماذا حدث؟

-لا شيء.. هذا الطارق يهذي بكلامٍ عجيبٍ، لم نفهم منه شيئاً.

حاولت جهاد أن تعتدل رغم الوهن الذي بها لكن يد سلمى أحالت بينها وبين ذلك قائلةً:

-لقد أمر الطبيب بوضعكِ تحت الملاحظة لمدةٍ لا تقل عن أربع ساعاتٍ.. ولقد أمر أيضاً بإجراء بعض الفحوصات والتحاليل حتى يتأكد من سلامتكِ.

ابتسمت جهاد في مرارةٍ قائلةً:

-لا فائدة من كل هذا، أنا بخيرٍ الآن، وسأحاول العودة إلى منزلي بمفردي.

-وأين أنا ؟!

-لا أريد أن أثقل عليكِ.

-بل اثقلي عليّ يا حبيبتي.. ثم إنني لا بد أن أذهب معكِ حتى أخبر والدي هذا الحقير بما فعل.. وعلى أي أساسٍ فعل ذلك؟

-انتفضت جهاد قائلةً:

-أرجوكِ لا تفعلي، دعيه وشأنه، ولا تتحدثي معه في ما حدث مطلقاً.

نظرت سلمى إليها في تساءل هاتفتاً:

-ماذا هناك؟

-لا شيء.

-هل هناك شيءٌ تخفينه عني؟

-أبداً.. ثم أشاحت بوجهها بعيداً عن سلمى، التي ظلت تحاصرها بنظراتها الاستفهامية.

بعد لحظاتٍ، همت سلمى بالمغادرة؛ لتخبر الجميع أن جهاد قد استعادت وعيها.. وبمجرد أن ابتعدت في الممر، حتى تحاملت جهاد على نفسها، وغادرت فراشها ثم ركضت في الممر بسرعةٍ.. هبطت درجات الممر الخلفي على عجلٍ، ثم أوقفت أول سيارةٍ وجدتها عند باب الطوارئ الخاص بالمشفى.

أملت السائق عنوان منزلها على عجلٍ .. اجتازت حديقة بيتها الصغيرة بخطواتٍ سريعة.. ولكم تعاظمت دهشتها، عندما وجدت هذا الطفل ينتظر عودتها عند الباب.

****

-السيد " حازم عبدالسلام " بالخارج، ويستأذن في الدخول يا سيدتي.

-دعه يتفضل فوراً.

دخل" إيلان"، وهو يحمل على وجه ابتسامةً مشرفةً، قبل أن يهتف قائلاً:

-أرجو ألا أكون قد تأخرتُ عليكِ يا سيدتي.

-لا بأس، انتظار خمس دقائق لا يضير.

-أرجو ألا تتوهمي أنني من أولئك الذين لا يلقون بالاً لمواعيدهم، كل ما هنالك أن القطار قد تعطل ساعةً كاملةً.. ولا أدري ما مشكلة القطارات في البلاد العربية؟!

قالت باستغرابٍ:

-أي قطار ؟!

- لقد كنتُ عائداً من الإسكندرية، وجئتُ للقائكِ قبل حتى أن أمر على الفندق الذي أقطنُ فيه.

قالت مرددةً:

-الإسكندرية!!!

-نعم.. إنها مدينة قريبة إلى قلبي.. لطالما حلمتُ بزيارتها، والتريض على شاطئها.. لطالما حلمتُ أن أقضي وقتاً طويلاً لكن ظروف عملي لم تسمح لي بذلك، بل إن مدة إجازتي قد أوشكت على الانتهاء.

انتفض قلب حياة فجأة، وهي تهتفُ:

-سترحل سريعاً هكذا؟

-أجل.. سواء قبلتِ أو رفضتِ، فلدي عملٌ خاصٌ بالمنظمة، ولابد أن نبدأه الأسبوع القادم.

-وما هو؟

-السفرُ إلى قلب فلسطين؛ لأكتب تقريراً كاملاً عن الطفل العربي الفلسطيني.. لكن هذه خطة المنظمة، أما خطتي الشخصية فهي تختلف تماماً.

-وما هي خطتك الشخصية؟

-لقد وجدنا في الصناديق الخاصة بالمنظمة مبلغاً كافياً من التبرعات.. ولقد قررتُ استخدامه من أجل إدخال السرور على قلوب هؤلاء الصغار الذين أجبرتهم ظروفهم أن يُولدوا رجالاً، وأن يعيشوا كذلك فلا مجال لمرحلةِ الطفولةِ بين مراحلهم العمرية المختلفة.

نظر إلى عينيها؛ ليرى وقع تأثير كلامه عليها ثم أكمل متابعاً:

-لقد قررنا بناء مدرستين ومشفى خاصاً بالأطفال، بالإضافة إلى بعض الملابس والهدايا التي منحها رجال الأعمال مجاناً للمنظمةِ.

هزت حياة رأسها في إعجابٍ.. وحماسته الواضحة أُثناء كلامه ألهبت حماستها.. مدت يدها إليه بالملف الذي منحها إياه في المرة السابقة هاتفة :

-لقد تأكدتُ عبر مصادري الخاصة من صحةِ المعلومات التي أعطيتني إياها.. وقرأتُ تقريراً كاملاً عن موقف المنظمة الخاصة بكم مع الأطفال المسلمين بباكستان،

بعد أن أحرق الهنود أهليهم في محارق جماعية.. من الواضح أن المنظمة الخاصة بكم، لا غبار عليها لكن أليس هذا غريبٌ خاصة وأنه يصدرُ عن شبابٍ يعتقدون أن الإسلامَ دين رهبةٍ.. وأن اللحى رمزُ للجريمة على مستوى العالم؟!

-لهذا يا سيدتي فنحن نتعامل مع الأطفال، حتى تكون سريرتنا نقية تماماً، ولا نحمل أي حقدٍ أو ضغينةٍ تجاه مَن نقدم لهم يد العون.. فلو كانوا مثلاً رجالاً راشدين يخالفوننا في الرأي أو الاعتقاد؛ لوجدنا في أنفسنا شيئاً عليهم دون أن نشعر.

نحن نتعامل مع أطفالٍ لا يدركون شيئاً عن الإرهاب، ولا يفهمون معنى الحرب أو السلام، كل هذا لا يعنيهم في شيءٍ، بالإضافة أنني أحد أهم أركان المنظمة ومع ذلك فأنا مسلم الديانة وهم لم يروا مني إلا الخير، وهذا بدوره منحهم إحساساً بالمسئولية تجاه معتقداتهم التي رسختها وسائل الإعلام والصحافة والتي من المحتمل أن تكون ممولة لصالح حكومةٍ ما، وأحزابٍ معينةٍ.. فإذا كنتُ أنا " حازم عبدالسلام " المثقف، الإنسان، الهادئ والخلوق ،ومع ذلك أحملُ في قلبي إسلاماً، وأرد كل صفاتي الحسنة له.. أما صفاتي السيئة، فأرجعها إلى هوى في نفسي.. كل هذا جعل منهم شباباً واعياً ومدركاً، ومن المفترض أن يعيدوا النظر في مثل هذه المسائل، وخاصة أن المنظمة قد أسست من أجل الطفل العربي أولاً، ثم الطفل المضطهد ثانياً، أياً كانت جنسيته.

-سأحاول الانتهاء من أشغالي خلال اليومين القادمين، وسأرتبُ أمور السفر إلى فلسطين؛ لألتقي بك هناك، وحتى أرى نشاط المنظمة رأي عين حتى يطمئن قلبي.

شد "إيلان" قامته واقفاً وعينيه تحملُ نظرةً غريبةً.. نظرةً أطل منها بريق الغدر!!!

****

نظرت " حياة " إلى " معتصم " نظرة إشفاقٍ ، وهي تزدرد ريقها، وقبل أن تبدأ قراءة قائلةً:

" عمي معتصم.. لطالما انتظرناك يوم عزاء والدي.. وكثيراً ما أخبرتنا أمي أنك على وشك الوصول، لكنك خيبت كل آمالنا ولم تأتِ.. لطالما حلمتُ أن أرتمي في أحضانك حتى أشم فيك رائحة والدي الذي رحل على غير موعدٍ، وبدون وداعٍ ، ولا أدري ما الذي منعك من السؤالِ عنا ومواساتنا في مثل هذه الظروف؟

بعد منتصف النهار بقليلٍ ، لم أستطع مواصلة البكاءِ والنحيب.. لقد هدني السهر ليلة أمس في محاولة انتظار وصول جثة والدي الشهيد، فلم يكن مني إلا أن غفوتُ فرأيتُ وكأن والدي الشهيد قد أتاني في الحلم وهو يهتفُ بي:

-انهض يا يوسف.. عمك معتصم يقفُ وحيداً، يبكي هناك بجانب سرادق العزاء.. فركضتُ إلى المكان الذي أشار إليه والدي لكنني لم أجد أحداً.. وعندما سألتُ هل كان أحد يقف هنا منذ دقائق؟ فأجابني أحدهم:

-نعم.. شخصٌ ما يرتدي بذلة عسكرية، كان يقف هنا لكنه رحل قبل دقائق.

حاولتُ العثور عليك، لكنني لم أنجح، فعدتُ خائب الخطى إلى أمي التي حكيتُ لها كل ما حدث فما كان منها إلا أن قالت:

-لعله شخصٌ آخر.. لو كان هنا لأتى.. لابد أن هناك عذرا ما منعه من الحضور.

توقفت حياة عن القراءة؛ لتمسح دمعةً سقطت على وجنتها، ثم أكملت.. بعدما استفقنا مما حدث أتى المحامي الخاص بأبي؛ لينفذ وصيته، فوجدنا فيها مبلغاً كبيراً يخص

والدتك.. وعندما حاولنا إرساله إليك، علمنا أن الله قد ألحقها بوالدي.. وعندما حاولنا إرسال المبلغ على المنزل الخاص بكم باعتباركم الورثة تنفيذاً لوصية أبي، إذا بهم يخبروننا أنك في حالةٍ يرثى لها بعد أن رفضت أختك المبلغ قائلةً:

-لقد توفيت أمي.. وأنتم أولى بهذا المال منا.. ولقد قررت والدتي أن هذا المال قد خرج من ذمة أبي لكم.. وما كان لرجل مثل أبي أن يرد عليه ماله، أو أن تلقى عطيته في وجهه.

أنت لا تعلم كم اشتقنا لوالدي!.. وكم نرغب في احتضان كل شيءٍ كان يحبه أو حتى كان يراه!.. ولذلك لقد حاولنا زيارتك في المشفى مراراً، لكنه لم يسمحوا لنا.. فهلا سمحت لنا أنت بزيارتك؟!

****

عقدت "جهاد" حاجبيها في تعجبٍ وهي تهتفُ:

-"خالد".. ما الذي تفعله هنا؟

-إنني أنتظركِ منذ ساعةٍ كاملةٍ.. لقد تأخرتِ كثيراً اليوم.

-لم ترد "جهاد:، أدارت المفتاح في الباب، ثم ذهبت رأساً إلى غرفةِ نومها؛ لتبحث عن الحقيبة.. هتف "خالدٌ" في ضيقٍ:

-مالكِ متعجلة هكذا!!.. أريد الحديث معكِ في أمرٍ هامٍ.

نظرت إليه في حنانٍ ، وهي تهتفُ:

-لابد أن أغادر خلال دقائق.

– أردتُ مساعدتكِ في أمر ما.. إنكِ الوحيدة التي تستطيعين إقناع أمي وأبي بما أريد فعله.

حاولت أن تمنحه دقائق من وقتها، والهلعُ يكاد يعصفُ بقلبها.. تخشى وصول أحدهم إليها، قبل أن تلوذ بالفرار.. لو تكلم طارق، وأخبرهم أنها من أصلٍ يهودي؛ لقتلوها جميعاً.. لن يحاول أحدٌ فهم ما ستشرحه لهم، بل لن يمنحوها الفرصة؛ لشرحه من الأساس.. لابد أن تغادر الآن رغم حبها لخالد، ورغم أنها مربيته، وفي مقام أخته الكبرى.. وهو لطالما عاملها على هذا الأساس إلا أنها ليس لديها وقتٌ كافٍ؛ لسماع ما يود قوله.. لكنه يحاصرها من كل جانبٍ مردداً كلاماً كثيراً لم تستوعب منه حرفاً واحداً.

حاولت أن تهدأ من روعها، وأن تمنحه بعض الوقت؛ لسماع ما يقول.. ولكنها كانت المفاجأة.. مفاجأة لم تتوقع أن تسمعها من صبي أبداً، وخاصة لو كان هذا الصبي هو "خالد"، فتى العم "محمود" المدلل

****

حلقت الطائرة على الأراضي الفلسطينية.. لا تدري، لماذا تشعر أن هناك شيئا ما سيحدث؟.. إحساسٌ عجيبٌ ساورها منذ وضع أولِ قدمٍ لها في الطائرة.. حاولت الانشغال بقراءة بعض المجلات الموجودة بجانبها لكنها لم تعِ حرفاً مما قرأت.. أغلقت المجلة التي كانت بيديها، ثم عادت إلى شرودها ترى ما الذي سيحدث.

انتبهت، وعجلات الطائرة تضرب أرض المطار.. وضعت يدها على رأسها في محاولةٍ منها؛ للسيطرة على الصداع الذي يكاد يعصف بها.. أشغلتها إجراءات أمن المطار عن شعورها الغريب ذاك، ولم تكد تنتهي من هذه الإجراءات حتى لمحت شبح

"إيلان" يلوح من بعيد.. وضعت على شفتيها ابتسامة مفتعلة في محاولةٍ منها؛ لمواراة القلق الذي يكاد يعصف بها.

-مرحباً، أنرتِ فلسطين كلها، وليس مطار" عطاروت " وحده.

-بل قل:

-مطار"القدس" الدولي كما يسميه أهله، وليس كما تسميه قوات الاحتلال.

افتر ثغره عن ابتسامةٍ صفراء، بثت بداخلها الكثير من القلق.. حاولت إزالة الحدة التي سيطرت على دفة الحديث قائلة:

-لقد قررتُ المكوث بأحد الفنادق القريبة من هنا، حتى أستطيع زيارة بعض المعالم الإسلامية التي أودّ زيارتها.

نظر إليها إيلان بعمقٍ ، وكأنه يحاول فهم ما تخفيه بداخلها، ثم قال معلقاً:

-لكن المنظمة تكفلت بذلك وقمنا بتجهيز غرفة خصيصاً لكِ حتى يسهل التواصل بين أعضاء المنظمة والتقائهم في الوقت الذي يحبون.

لقد سئمتُ مظاهر الحراسة والروتين والسكرتيرة، وتلك المظاهر التي أغرق فيها حتى النخاع في مصر، وأود أن أشعر ببعض الحرية هنا، فكما تعلم وقتنا هنا لن يستمر طويلاً ، وسنغادر قريبا، وأريد أن أشعر ببعض الحرية قبل أن أعود إلى مصر.

-كما تشائين.. وداخله يهتفُ:

-إن استطعتِ العودة إلى مصر من الأساس!!

-منذ أن أتيتُ إلى هنا، وطباعك متغيرة نوعاً ما، هل حدث شيءٌ؟

تلعثم إيلان في توترٍ ، لكنه ما لبث أن سيطر على أعصابه قائلاً:

-أعتذر لكِ، ما قصدتُ هذا لكن هناك بعض النقاط الدبلوماسية الخاصة بالمنظمة، والتي لم نستطع تجاوزها مع الحكومة الفلسطينية حتى الآن.

-أعتقد أن مكوثنا هنا لن يدوم طويلاً.. حاول أن تمنحهم ما يريدون حتى نستطيع إنجاز ما جئنا من أجله.

-لكننا لن نستطيع إنجازه، إذا لم نستطع إقناعهم بفكرة المنظمة، والتي تنص أنه لابد أن نحصل على موافقة أربعة وزراء فلسطينيين على الأقل.

-وما هي فكرة المنظمة بشأن فلسطين؟

-نريد أن نقضي على تبادل إطلاق النار، ولو لمدةٍ محدودةٍ على الأقل.

رفعت " حياة " حاجبها في دهشةٍ، وهي تهتفُ:

-وكيف ذلك؟!!.. إن أردت تطبيق فكرتك هذه، فعليك أولاً بإقناع الحكومة الإسرائيلية بها، وليس الحكومة الفلسطينية.

-وما الفرق بين الحكومتين، المهم أن نصل إلى وقف إطلاق النار.

-إسرائيل هي التي تبادر بإطلاق الرصاص أولاً.. فكيف تطلب مني ألا أدافع عن نفسي أو حتى أحاول أن أرد الضربة؟!!

-في عُرفكِ هذا لن يتوقف سيل الدماء، وسيقتل كل أبناء هذا الوطن.

-ليكن، وما الفائدة أن يتوقف سيل الدماء، ويحيا أبنائي في حين أنني خسرتُ المأوى الذي يمكن أن يعيشوا فيه..

تنهدت ثم أردفت متابعة:

-محاولة إقناعك لأصحاب الأرض بوقف إطلاق النار هو ذاته أن تضع الدواء أمام المريض، ولكنك تجبره على عدم تناوله.. هو ذاته وضع الطعام أمام جائع، لكنك تأبى إلا أن تقيد يديه.. ذئبٌ آتٍ؛ ليفترسك وسلاحك بيديك، لماذا لا ترديه قتيلاً قبل أن يفعل هو هذا بك؟!.

هؤلاء الأنذال لن يردهم عن غيهم، ولن يردعهم عن ظلمهم إلا الرصاص.. وكما قالوا قديماً " لا يفل الحديد إلا الحديد ".. وكلما قاموا هم بإبادتنا، صممنا نحن أيضاً على إبادتهم.. إن قتلوا منا واحداً سنلد نحن مكانه مائة ألفٍ.

صمتت لحظة، ثم أردفت في استنكارٍ :

-ما بك؟.. أفكارك ومعتقداتك تغيرت فجأة هكذا، وكأنك شخصٌ آخر غير الذي التقيتُ به في مصر؟

-التمسي لي العذر.. لعل في عقلي أنا الآخر حرباً مثل الذي تندلع على هذه الأرض!!

انتهت حياة من ترتيب ملابسها بخزانة الغرفة، وعقلها لا يكف عن التفكير فيما قاله السيد " حازم عبدالسلام " فضلاً عن ذاك الوجه الذي قابلها به.. ترى ما الذي حدث أين ذهب حماسه؟.. ولماذا خارت قوته؟.. وما هذه النظرة العجيبة التي تلمع في عينيه؟

جلست أمام المكتب الذي يقبع بركن الغرفة.. قلبت مجموعة من المجلات الموضوعة عليه، وألقت نظرة عابرة على إحداها، وأخذت تتصفحُ أوراقها في مللٍ..

هبت واقفة، وكأنها تذكرت شيئاً ما، أمسكت بسماعة الهاتف.. ضغطت أصابعها بعض أزراره، ثم بدا عليها التردد.. هزت رأسها في قلق، ثم وضعت السماعة مرةً أخرى.. لكن قلقها المجهول المصدر جعلها تعاود الاتصال مرةً ثانية؛ ليجيبها الطرف الآخر، والذي لم يكن سوى مستشارها الخاص الذي رفضت حضوره معها هنا رفضاً قاطعاً رغم عدم رسمية تصرفها ذاك.

طلبت منه أن يعيد فحصه مرةً أخرى، بخصوص منظمة الطفل العربي والسيد " حازم عبدالسلام " وأن يوافيها بما توصل إليه بعد ساعتين على الأقل

****

-ما هذا الذي تقوله يا خالد؟!.. لابد أنك تهذي.

-وهل هذا الأمر يصلح لأن يكون موضعاً للهذيان؟!.. أريد أن أذهب إلى معسكرات التدريب، وأن أدحر العدو ما العجيب في ذلك؟

-أنت لا زلت صغيراً.

-العدو لا يفرق بين صغير أو كبير.. رصاصاتهم تخترق صدور الجميع، وأنا بقلبي حبٌ للجهاد، ونفسي تطوق للشهادة، وأريد أن أنتقم لأختي زهرة التي لم يأخذ أحد ثأرها حتى الآن.

-وماذا لو رحلت أنت الآخر على أيديهم؟.. ماذا ستفعل والدتك حينها؟

-لن تفعل شيئاً..هذا قضاء الله إن كتب علي الموت صغيراً، سيقبضني إليه حتى لو كنتُ في بروجٍ مشيدةٍ.. أرجوكِ يا جهاد، اقنعي أبي وأمي.. اليهود يقتلوننا كل يوم، ويهدمون بيوتنا كل ساعةٍ، هل سنظل نشاهدهم ونحن مكتوفوا الأيدي، ويعمنا

الصمت هكذا؟.. لابد أن أذهب إلى إحدى معسكرات التدريب قبل أن تخور قوانا، ويزجوا هم بنا إلى معسكرات اللاجئين.

ابتسمت جهاد رغماً عنها، ثم قالت:

-تتكلم وكأنك رجل.. فرحتي بك لا حدود لها الآن.. أعادت جهاد كلمته مرة ثانية معسكرات التدريب خيرٌ لنا من معسكرات اللاجئين.. ثم لمعت في رأسها فكرة أنه لا مكان لها إلا في أحد هذه المعسكرات.. لن يتعرف عليها أحدٌ هناك، وقد آن الآوان أن تثبت للجميع أنهم كانوا مخطئين في ظنهم، وأنها أكثر وطنية منهم.

وفي معسكرات التدريب سيقومون هم بدورهم.. لن يعجزوا عن منحها الملبس والمأكل والمأوى....

-جهاد.. في ماذا تفكرين؟.. أنا أحدثكِ.

-لا شيء.. ما دمت القضية بالنسبة لك هي أننا بحاجة للمقاومة، ولرد الضربة وردع العدو فطارق أولى منك بفعل هذا.. طارق رجل، ويستطيع حمل السلاح، وإبادة كل من يتعرض له منهم.

-وماذا عن مصالح والدي؟.. مَن سيتكفل بها إذا ذهب طارق إلى معسكرات التدريب؟.. صدقيني أنا أنسب شخص يستطيع أن يثأر لزهرة.. لستُ مهماً كأبي وأخي طارق.

صمت لدقيقة ثم عاد يقول في توسلٍ:

-هل اقتنعتِ أنتِ حتى تستطيعين إقناع أمي ؟

-وكيف أقنعُها بأن تسمح لصغيرها ذو الإثنى عشر عاماً أن يغادر أحضانها بلا عودة وأن ينضم إلى الفدائيين.

-لن أحارب معهم عاجلاً هكذا.. لابد أن أتدرب على حمل السلاح أولاً، وعلى استخدام القذائف.. لابد أن أتمرن على تمريض الجرحى، وكيفية الهرب في وقت قياسي وأشياء كثيرة من هذا القبيل.. وبعد ذلك ستأتي مرحلة الانضمام إلى صفوف المحاربين..... .

قطع كلامه فجأة صوت بوق السيارة التي توقفت أمام حديقة المنزل.. ارتبكت جهاد، وامتقع لونها وبدا عليها الخوف والهلع.. حملت حقيبتها، وركضت نحو باب المطبخ، ثم غادرت المنزل من الباب الخلفي للحديقة متجاهلة نداءات خالد المستمرة وركضه وراءها.. أوقفت إحدى سيارات الأجرة.. وضعت حقيبتها.. نظرت نحو خالد الذي بدا مضطرباً، ثم قالت بصوتٍ حزينٍ ودموع تقف على أعتاب عينيها:

-لم يمنحني طارق الوقت الكافي؛ لأودع أبويك وداعاً يليق بهم.. أخبرهم أن يسامحوني جميعاً.. ازدردت دموعها.. ووضعت نظارةً سوداء على عينيها وأمرت السائق أن ينطلق.

****